علم النفس التربوي: النشأة والأصول المعرفية

**نظرة تاريخية :**

يجمع مؤرخو علم النفس على أن نشأة هذا العلم وظهوره كعلم قائم بذاته يرجعان إلى بدايات النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ويذهب العديد منهم إلى اعتبار عام 1879 تاريخاً لاستقلال هذا العلم. وهم، بهذا، يشيرون إلى العالم الألماني **فوندت** كمؤسس لعلم النفس. حيث أقام **فوندت** في عام 1879 أقام أول مختبر للدراسات السيكولوجية. حيث ساعد التقدم التقني انذاك بالاهتمام بدراسة السلوك الإنساني والحيواني وتطوره، وأثر التربية والتعليم في نمو الوظائف النفسية عند الدارسين، وكذلك محددات سمات الشخصية وخصائصها ، وآليات النشاط الحسي عند الإنسان والحيوانات، وردود الأفعال التي تصدر عن كل منهما على المثيرات الخارجية. وقد جرت تلك الدراسات الممهدة لعلم النفس بأربعة محاور هي :

### **الفسيولوجيا التجريبية والإدراك الحسي:** شمل التطور العلمي في نهاية القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر، من جملة ما شمله، ميدان الفسيولوجيا. ففي هذه الفترة وجّه الكثير من العلماء اهتمامهم نحو الجهاز العصبي للتعرّف على بنيته ووظائفه مستخدمين في ذلك أجهزة وأدوات علمية متقدمة كالمجهر(الميكروسكوب) والمبصار المزدوج(الستيريوسكوب) ووسائل علمية مختلفة، محاولين، في الوقت ذاته، تحسينها وتعديلها.

1. **دراسة الشخصية والفروق الفردية:** من الموضوعات التي تناولها العلماء خلال القرن التاسع عشر تلك التي تتعلق بالصفات الجسمية والنفسية ودرجات تفاوتها عند البشر. فاختلاف الناس في طول القامة ولون الشعر والعينين والبشرة وحجم الجمجمة وغيرها من الخصائص الجسمية، وكذا تباينهم من حيث القدرات العقلية والدوافع والعواطف والإرادة وسواها من السمات النفسية استرعيا انتياه الإنسان منذ القديم. ومع التطور خلال القرنين الماضيين على وجه التحديد أصبح هذا الاختلاف وذاك التباين بين الناس في أجسامهم ونفوسهم من المسائل الملحة التي تتوقف جملة من الإجراءات والتدابير في الميادين المذكورة على حلها، فكان السعي إلى إيجاد معايير موضوعية تكون صالحة لتقويم إمكانات الفرد وقدراته النفسية.
2. **دراسة الظواهر النفسية المرضية :** لم تكن الظواهر النفسية الشاذة والمرضية بعيدة عن دائرة اهتمام الإنسان عبر مراحل تاريخه الفكري، وإنما كانت واحدة من المشكلات التي دفعت الأفراد والجماعات إلى التفكير بها وتأمل أعراضها والتعرف على أسبابها ، بعيدا عن التفسيرات التراثية الخرافية واللاهوتية الموروثة. نحو ضرورة البحث عن أسباب الأمراض الذهانية في البنية البيولوجية والفيزيولوجية للمريض.
3. **النشاط التربوي وآراء المربين السيكولوجية :** قطعت التربية في أوربة حتى مطلع القرن التاسع عشر شوطاً لا بأس به. فقد انتشرت المؤسسات والمراكز التي تعنى بإعداد الأفراد إعداداً علمياً ونفسياً واجتماعياً وأخلاقياً ودينياً... الخ. وبالقدر الذي كان فيه ذلك انعكاساً للتطور العلمي والاجتماعي، فإنه يعد نتيجة لتطور الآراء حول علاقة المعلم بالمتعلم في شتى مستويات التعليم، ومحاولات الارتقاء بهذه العلاقة إلى الحدّ الذي يجعلها قادرة على ترجمة التصورات المتنامية التي تمس جوهر العملية التربوية والتعليمية في واقع ملموس. وبعبارة أوضح، فإنَّ النجاحات التي أحرزتها المجتمعات الأوربية في ميدان التربية والتعليم كانت في الكثير من جوانبها وأدواتها، صدى لأفكار المعلمين والمربين ودعواتهم إلى ضرورة الاهتمام بالإنسان وتربية حواسه وعقله، وتوجيه دوافعه وانفعالاته باتباع أساليب حديثة، واعتماد مضامين تنأى بالنشاط التربوي عن أسلوب القسوة والإكراه، وتدنو به من وقائع الحياة ومعطيات الفكر.

إن القاعدة الأساسية التي انطلق منها علم النفس تاريخيا، كحقل معرفي متخصص بذاته، إنما هي معطيات الموقف الارتباطي في التفكير العقلي، حيث لعبت أعمال الارتباطيين الانكليز من الفلاسفة بيركلي، وهربرت سبنسر، وديفيد هيوم، وجيمس ستيوارت ميل، في أواسط القرن التاسع عشر، لعبت اعمالهم دوراً هاماً في الإعلان عن ميلاد علم النفس، وظهور بعض التيارات والمدارس السيكولوجية، فقد أولوا اهتماماً خاصاً بمظاهر النفس ومعالجة القضايا المتعلقة بتشكلها وتطورها والتعرف على القوانين التي تتحكم بها، وصولاً إلى وضع برنامج شامل لفصل علم النفس عن الفلسفة والعلوم الأخرى.

**الاصول المعرفية لعلم النفس**

أن علوم العصر الحديث لم تنشأ صدفة أو فجأة، وإنما جاءت تتويجاً للتطور الحضاري المديد الذي أسهمت فيه الأجيال المتعاقبة عبر عصور التاريخ. وكذلك بالحديث عن علم النفس حيث أن له تاريخاً قصيراً، وماضياً طويلاً"، فإننا لا نكاد نجد في تاريخ أيّ علم من هذه العلوم مثلما نجده في علم النفس، من تعدد في الاصول المعرفية، والارتباط بالعلوم والمباحث الفلسفية. ويمكن أن نحدد أهم تلك الأصول المعرفية لعلم النفس، بالتالي:

1. **الفكر السيكولوجي في الفلسفة اليونانية:**

إن الحديث عن الفكر السيكولوجي بدءاً من الفلسفة اليونانية لا يعني مطلقاً أنَّ الفلسفات التي سبقتها لم تعن بهذا الجانب المعرفي، بل إنها حملت الكثير من الآراء والملاحظات التي عكست اهتمام أصحابها بطبيعة الإنسان ونشاطه النفسي، على الرغم من الطابع الميتافيزيائي لها. ولقد أثرت هذه الفلسفات على التطور الذي عرفه الفكر الفلسفي في بلاد اليونان. ويشير مؤرخو الفلسفة، مثلاً، إلى بصمات الفلسفة المصرية الواضحة على تعاليم الفلاسفة اليونانيين، وخاصة تاليس الذي يعتبر مؤسس الفلسفة اليونانية القديمة.

* الفيلسوف **طاليس** (640-547 ق. م) تنسب إلى الفيلسوف طاليس الحكمة المشهورة "اعرف نفسك" لتكون معرفة النفس أولى خطوات الفكر في البحث الفلسفي، وتقدم مدلولات هذه الحكمة الدليل الواضح على محاولة حكماء تلك الحقبة فهم السلوك الإنساني ومكانة الإنسان في هذا الكون. ذلك لأن وجود الإنسان وأصله ومآله كانت إحدى المشكلات التي حاول طاليس البحث فيها ومعالجتها. فقد رأى أن الإنسان كائن يتألف من عنصرين رئيسيين متناقضين، الجسد أو البدن من جهة، والنفس أو الروح من جهة ثانية.
* الفيلسوف **فيثاغورس** (578-450 ق. م) وأتباعه كما الفيلسوف طاليس يرون العلاقة بين الجسم والنفس كجوهرين لا صلة لأحدهما بالآخر من حيث أصله وطبيعته. ويقول فيثاغورس بإمكانية انتقال الروح من إنسان إلى آخر، أو إلى أي كائن حي، بعد الموت. وهذا ما يعرف بتناسخ الأرواح. وقد لاقت هذه الفكرة صدى إيجابياً لدى بعض الفلاسفة اليونانيين. كما وجدت طريقها إلى معتقدات عدد من المذاهب الدينية المختلفة في مراحل متأخرة من التاريخ العالمي. ويذهب بعض المؤرخين إلى أن فيثاغورس لم يكن أول من طرح هذه الفكرة، وإنما نقلها عن الفلسفتين القديمتين: المصرية والهندية.
* الفيلسوف **سقراط** (470-399ق. م) يطوّر نظرة طاليس إلى الإنسان بوصفه يتألف من عنصرين رئيسيين متناقضين، الجسد أو البدن من جهة، والنفس أو الروح من جهة ثانية، ويعلن أن الجوهر الأول، أي النفس العاقلة أو الروح، هو جزء من العقل الكلي أو الروح الإلهية. أما البدن فيتألف من عناصر العالم المحسوس: الماء والتراب والنار والهواء. وبما أن النفس الإنسانية هي جزء من الروح الإلهية التي تسيطر على الظواهر والحوادث والأشياء الكونية، فإنَّ بإمكان الإنسان السيطرة على بدنه والتحكم برغباته وشهواته. وعلى هذا فالنفس، من خلال هذا التصور، تشارك فيما هو إلهي، وهنا يبرز مغزى الشعار الذي رفعه طاليس "اعرف نفسك بنفسك". فمعرفة الإنسان لذاته تتوقف، في رأي سقراط، على الارتداد أو الرجوع إلى النفس وتأملها والوقوف على ما هو مشترك بينها وبين الروح الإلهية، أي بين الإنسان وبين الله. وانطلاقاً من طبيعة كل من الجوهرين(النفس والبدن) يعتقد سقراط أن للنفس القدرة على البقاء بذاتها والخلود بعد مفارقتها الجسد، ما دامت تستمد حركتها من ذاتها، أي من الروح الإلهية. وهي على العكس من الجسد الذي يفنى لأنه يستمد حركته من الخارج.
* الفيلسوف **أفلاطون** (427-347 ق.م) يستند الى رأي أستاذه سقراط إلى حد كبير. وهذا ما يظهر بجلاء عبر نظرته إلى طبيعة الروح والجسد ومصير كل منهما. والبرهنة على خلود الروح، تكون عن طريق المعرفة ذاتها؛ إذ من غير الممكن في رأيه تقديم تفسير صحيح وكامل للمعرفة من غير أن تتأمل الروح المثل التي تنتمي إليها قبل أن تحل في البدن. وهنا يطرح أفلاطون نظريته في المعرفة. فالمعرفة الحقة تتم، في اعتقاد أفلاطون، عن طريق عملية التذكر التي يقوم بها الإنسان أثناء نشاطه الحياتي لما كانت النفس قد تمثلته قبل هبوطها إلى الأرض واجتماعها بالجسد. فما ينتاب الإنسان من مشاعر وأحاسيس خلال مراحل حياته. وما يدركه من حوادث وأشياء وعلاقات على هذه الأرض، ما هو إلا الانطباعات والصور التي حملتها الروح معها من عالم المثل. وبما أن النفس كانت تعيش في عالم القيم السامية والمثل الرفيعة، ثم هبطت إلى عالم الفناء والتفسخ والفساد عقاباً لها، فإنها تتميز بعد اتحادها بالجسد عن النفس في ذاتها، أي قبل اتحادها به، إذ تتحول عندئذ إلى جسدية على نحو ما. وتبعاً لنسبة هذا التحول تتحدد قدرتها على معرفة الحقيقة وتجاوز الرغبات والشهوات واللذات الجسدية. وهذا ما حدا بأفلاطون إلى تقسيم النفس إلى ثلاثة أقسام:
* **الحكمة**، ومركزها الرأس. وهي أعلى أقسام النفس مرتبة وأرقاها منزلة.
* **الشهوة،** ومركزها البطن. وهي أدنى مراتب النفس وأحطها.
* **الشجاعة،** ومركزها القلب. وهي تشغل الموقع الوسط بين الحكمة والشهوة.

ويرى أفلاطون أنَّ هذه الأقسام توجد عند الناس بأشكالٍ متباينة ودرجاتٍ متفاوتة. فقد تتغلب الحكمة على الشجاعة والشهوة عند البعض، في حين تسود الشهوة على الحكمة والشجاعة عند البعض الآخر، أو الشجاعة على الحكمة والشهوة عند الفئة الثالثة. ويمثل تأمل النفس وما تحمله من سمات عالم المثل الفلسفي، لتفسير نشاط الجسد أصلا معرفيا من أصول علم النفس.

* الفيلسوف **أرسطو**(384-322 ق. م) ولقد استفادة من المعطيات المتقدمة نسبياً في مجال الطب وعلم الأحياء يومذاك من ناحية، وملاحظاته العلمية التي قام بها أثناء مرافقته للقائد اليوناني الإسكندر المقدوني في حملاته العسكرية من ناحية ثانية، بما مكنته من إدراك الكثير من الظواهر الطبيعية والحيوية والإنسانية، والانطلاق من الأسس العلمية في وصفها وتفسيرها. ويعتبر كتابه(في النفس) دليلاً على أن علم النفس قد صار حتى ذلك الحين ميداناً متميزاً إلى حدٍّ لا بأس به من ميادين المعرفة. ويرى المعلم الأول (أرسطو) أن ثمة علاقة بين الصفات والخصائص التي تتمتع بها النباتات والحيوانات من جهة، والشروط الطبيعية المحيطة بها من جهة ثانية. فهناك تباين بين الكائنات الحية التي تعيش في الجبال ونظيراتها التي تعيش في السهول، وبين هذه وتلك ومثيلاتها التي تعيش في الصحارى أو في المناطق الساحلية. وانطلاقاً من هذه النظرة المورفولوجية (التحليلية الوظائفية) حدد أرسطو موقفه من النفس، وطرح موضوعة اتحاد البدن والروح، وعدم إمكانية الفصل بينهما إلا عن طريق التجريد. ورأى أنَّ من غير الممكن تقسيم النفس أو الروح إلى أجزاء كما فعل أفلاطون. ولكنه وجدها تتخذ أشكالاً متعددة، وتتجسد في مستويات وقدرات متباينة، كالقدرة على التغذية، والقدرة على الحس، والقدرة على الحركة، والقدرة على الفهم. وإن هذه القدرات مجتمعة هي، كما يرى، خاصية الإنسان وحده دون سائر الكائنات الحيّة الأخرى. والقدرات الثلاث الأولى خاصية الحيوان. بينما لا يتمتع النبات إلا بالقدرة على التغذية فقط. وعلى هذا الأساس الارتقائي أكد أرسطو أن الإنسان هو النفس والجسد في وحدتهما.